نبذة يسيرة من

أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم

جزء من درس بمناسبة المولد النبوي



فضيلة الشيخ فضيل اسكندر (1901م ـــ 1982م)

كتابة وتعليق وإخراج

جمال مرسلي

مع الشكر الخالص للسيد عبد القادر بلطرش لتوفيره المادة الصوتية

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله وسلّم على سيّدنا ومولانا محمّد النبيّ المصطفى الكريم، وعلى آله وأصحابه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيّدنا محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- النبيّ العربيّ الأمّيّ الأمين.

الذي سطعت أنواره من مكّة المكرمة فأضاءت الأنام، وبدّدت جحافل الظلام، ومحت الوثنيّة ومحقت الأصنام.

وثبتت بفضل جهوده أسس الوحدانيّة، وانتشرت الفضائل بالاقتداء بسيرته والاهتداء بتعاليمه.

نحمدك اللّهمّ أن أرسلته رحمة عامّة للعالمين.

واختصصت بمنّتك به الأمّيّين وسائر المؤمنين.

واستجبت به دعوة إبراهيم، وحقّقت به بشارة عيسى والنبيّين.

قال الله تعالى في كتابه المبين: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129)} [البقرة: 127 – 129]

{وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (6)} [الصف: 6]

{وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (81)} [آل عمران: 81]

{لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (164)} [آل عمران: 164]

كان -صلّى الله عليه وسلّم- أكرم الخلق أخلاقًا، وأعلاهم فضائل وآدابًا، امتاز بذلك في عهد الجاهليّة فكيف يُدرَك كنهه بعد النبوّة، وقد خاطبه العليّ العليم بقوله: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: 4].

كان -صلّى الله عليه وسلّم- جامعًا بين اللّطف والتواضع وسهولة الخُلُق وبين العزّة والوقار والمهابة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبّه.

وكان جامعًا بين الرأفة والرحمة والحياء وبين الشجاعة والحزم والمضاء، فكان في حومة الحرب أثبت النّاس، وكانوا يلوذون به إذا اشتدّ البأس، حتّى إنّه ثبت وحده في غزوة أحد، ولكنّه -صلّى الله عليه وسلّم- لم يقتل بيده غير أميّة بن خلف، وإنّما كان يدافع عن نفسه وغيره دفاعًا، ويرشد المقاتلين بالتدبير والتثبيت إرشادًا، ولم يكن ينتقم لنفسه، ولا يحابي في الحقّ عشيرته ولا أبناء جنسه، وكان على حلمه الواسع لا تأخذه في الله لومة لائم.

وكان جوادًا كريمًا، أجود من الريح المرسلة والسحب المنهملة.

وكان أعظم الناس ثباتًا وصبرًا، وأحسنهم لله وللناس شكرًا.

وكان يحبّ اليسر ويأمر به، ويكره العسر وينهى عنه، فيقول عليه والسلام: "يسّروا ولا تعسّروا، وبشّروا ولا تنفّروا".

وكان يأكل من الطعام ما وجد، لا يأبى المستلَذّ منه نسكًا، ولا يتحرّاه تنعّمًا وترفًا.

كان -صلّى الله عليه وسلّم- يربّي المؤمنين بالقرآن، وبما آتاه الله تعالى من الخلُق العظيم والعرفان، فآخى بين المهاجرين والأنصار، حتّى إنّهم كانوا يتقاسمون المال والعقار، وألّف الله تعالى به بين قلوب الأوس والخزرج، فأصبحوا بنعمته إخوانًا، وكانوا في الجاهلية أعداءً، لا يألو أحدهم الآخر بغيًا وعدوانًا.

وكان يشاور أصحابه في الأمر، ويساوي بينهم في الإقبال والبِشر، ويوقّر كبيرهم ويرحم صغيرهم، ويكلّم فقيرهم ويعود مريضهم، ويحضر جنائزهم، ويقبل هديّتهم، ويجيب دعوتهم، ويكون بينهم كأحدهم، ويكون معهم كأحدهم -صلّى الله عليه وسلّم- هذا من تواضعه عليه الصلاة والسلام.

وقد أمرنا باتّباعه والاقتداء به -صلّى الله عليه وسلّم- فقال عزّ وجلّ: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ} [آل عمران: 31]

وهو -صلّى الله عليه وسلّم- بعث ليتمّم مكارم الأخلاق، فكرم الأخلاق هو أساس الشريعة وعمادها وغايتها وغرضها، فلا دين لمن لا خُلُق له، ولا خُلُق لمن لا دين له؛ لهذا دعا القرآن إلى الأخلاق الفاضلة والسجايا الطيّبة، ونهانا عن سفسافها وذميمها وسيّئها وفاحشها، فتراه يقول: {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ} [النحل: 90]، ويقول: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34)} [فصلت: 33، 34]

ويقول حكاية عن لقمان: {يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (18) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19) } [لقمان: 17 - 19].

ويحثّنا على الاقتصاد في موضع خاصّ إذ يقول: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا} [الإسراء: 29]

ويأمرنا بحفظ الأمانة والعدالة في الحكومة في قوله: {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: 58]

إلى غير ذلك من الآيات التي كانت قدوة الرسول في خُلُقه وعمله وسيرته وسيره

قالت السيدة عائشة -رضي الله تعالى عنها- وقد سئلت عن خلُق الرسول: "كان خُلُقه القرآن".

ولـمّا أُتِي النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- بسبايا طيّئ وقعت جارية في السبي فقالت: يا محمّد، إن رأيت أن تخلّي عنّي ولا تُشمت بي أحياء العرب؛ فإنّي بنت سيّد قوم، وإنّ أبي كان يحمي الذمار، ويفكّ العاني، ويُشبع الجائع، ويُطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يردّ صاحب حاجة قطّ، أنا ابنة حاتم الطائيّ، فقال -صلّى الله عليه وسلّم-: "يا جارية، هذه صفة المؤمنين حقًّا، خلّوا عنها؛ فإنّ الله يحبّ مكارم الأخلاق، وإنّ أباها كان يحبّ مكارم الأخلاق، ولا يدخل الجنّة إلّا حسن الأخلاق".

وقال معاذ بن جبل -رضي الله تعالى عنه-: أوصاني رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- باتّقاء الله، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وحفظ الجار، ورحمة اليتيم، ولين الكلام، وبذل السلام، وحسن العمل، وقصر الأمل، ولزوم الإيمان، والتفقّه في القرآن، وحبّ الآخرة، والجزع من الحساب، وخفض الجناح. -المراد بخفض الجناح التواضع- قال: وأنهاك أن تسبّ حكيمًا، أو تكذّب صادقًا، أو تطيع آثمًا، أو تعصي إمامًا عادلًا، أو تفسد أرضًا، وأوصيك باتّقاء الله عند كلّ شجر ومدر، وأن تُحدث لكلّ ذنب توبة، السرّ بالسرّ، والعلانية بالعلانية.

بمثل هذه الأخلاق قام هذا الدين، وسار سلفنا الصالح، وأتتهم الدنيا صاغرة والأمم خاضعة طائعة.

بمثل هذه الأخلاق امتدّ سلطانهم في مشارق الأرض ومغاربها، وأصبحت لهم الكلمة بين الأمم جميعها.

بمثل هذه الأخلاق أقبل الناس إلى الدخول في دين الله أفواجًا، وأسرعوا إلى مبادئه الحقّة إسراعًا.

فيجب علينا معشر المسلمين أن نتمسّك بالشريعة الإسلامية الغرّاء، ونقتدي بأخلاق رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- حتّى نصل إلى أوج السعادة في الدارين.

وإنّ من تأمّل في كتاب الله يجد أنّه حثّ على مكارم الأخلاق، فقد حثّ على الفضائل والآداب السامية، ونهى عن الرذائل والدنايا.

ومع ما بلغت إليه المدنيّة الحديثة في العلوم والآداب فإنّها لا تعدّ شيئا بجانب تعاليم الإسلام النقيّة الطاهرة، فنحن أحقّ بالاتّصاف بكلّ فضيلة والابتعاد عن كلّ رذيلة من أيّة أمّة أخرى.

لقد قضى المسلمون الأوّلون على مخازي الوثنية وآفات الجاهليّة، وفتح الله عليهم فسادوا الأمم ونشروا العلوم بفضل عقيدتهم وبما اتّصفوا به من صفات الرجولة والأخلاق القويّة التي استفادوها من القرآن الكريم وتعاليم رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-.

إنّ من المحزن الآن أن نرى تدهور الأخلاق وانتشار الفساد والتهاون بأنواعه، تهاونًا في إقامة الشعائر الدينيّة، تهونًا في الحقوق الوطنيّة، تهاونًا في الذود عن كرامة الأمّة والعائلة.

من المحزن حقًّا أن نرى فتورًا في الهمم، وتقصيرًا في الواجبات، واستهتارًا بالفضائل، وإقدامًا على اقتراف الرذائل، ومباهاة بالجرائم والمخازي والفضائح.

هل كان سلفنا الصالح يتخاذلون ويتباغضون ولا يتعاونون؟

هل كانوا لا يشفقون على الضعفاء والمساكين ولا يبرّون الأقارب ولا يغيثون الملهوفين؟

هل كانوا جامدي الإحساس لا يشعرون بمصائب الناس؟

هل كانوا يكتمون الحقّ ولا يحاربون الباطل ولا ينصرون المظلوم ولا يضمّدون جراح المكلوم؟

إنّهم لو كانوا كذلك لما قامت لهم قائمة، ولما كان لهم ذلك التاريخ المجيد في تاريخ الدنيا.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يهب المسلمين ما وهب أسلافهم من رشاد، وأن يبصّرهم طريق السداد، وأن يعيد عليهم هذه الأعياد، محفوفة بالخيرات، مجمّلة بالبركات، إنّه على ذلك قدير، وبالإجابة جدير.

سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله ربّ العالمين.

